سبقت الأخرى وبخاصة إذا كانت تهمّ شخصيات مختلفة في الرواية؛ فنحن لا نستطيع أن نقارن زمنياً الأحداث التي وقعت لأبطال «رجال في الشمس» قبل أن يلتقوا، كما أننا لا نستطيع أن نقرّ ترتيباً معيناً للأحداث التي مرّ بها العاشق. ان هذا الاهمال في الترتيب الزمني ليس قاعدة في كلّ الروايات بل انّ رواية «ما تبقى لكم» تعتمد على التقاطع بين الشخصيات والأزمان. وقد حاول غسّان فيها أن يصوّر الحركة المستقلة في الأحداث والمتوازية في الزمن، فهو ينتقل من بيت مريم الى الصحراء ليصوّر لنا أحداثاً تقع في الوقت نفسه، وهكذا يصبح الزمن هو الموحد لأحداث بعيدة في المكان كل البعد عن بعضها؛ وهو العنصر المنسق للأحداث.

ان ما رأيناه من تداخل الأزمان وعدم اتباعها سيراً خطياً متتابعاً يعكس ما نحسه في الواقع من نسبية، وما في المطلقات من بعد عن الرؤية الصحيحة للأمور، فالإنسان لا يعيش حياته حسب قوانين فيزيائية وانما حسب قوانين اجتماعية ونفسية تجعل للشيء الواحد تأويلات متعددة وتجعل احساسنا بالزمن مختلفاً. أمّا في طريقة السرد، فقد استعمل من الأساليب ما يندرج في نفس هذا الفهم للواقع نفسه، ومن هذه الأساليب، تعليقه على الحدث الواحد من وجهتي نظر مختلفتين. وقد استخدم هذا الأسلوب، على سبيل المثال، في رواية «العاشق»؛ حيث يصف لنا مشي العاشق على النار من وجهة نظر الشيخ سلمان ومن وجهة نظر العاشق نفسه، كذلك صور حادث فراره من الكابتن بلاك من وجهتي نظرهما، وربما أراد بذلك أن يبين العمق الملحمي في الواقع، فهو لا يكتب أسطورة وإنما يكتب ملحمة واقعية وإن كانت تحوي خوارق، فانها متشبعة بالواقع ومحدودة بامكاناته، وما يهمنا هنا هو أن نوضح مدى تحرر غسّان في المزج بين التقنيات للتعبير عما يريد، فهو لا يهتم بالشكل إلا بقدر ما يعبر عن المحتوى الذي يطمح الى تبليغه وهو لا يلتزم بشكل من الأشكال الفنية التزاماً قدسياً، وانما هو يستعمل أشكالاً فضفاضة يمكن أن يطوعها بحرية ويمزج بينها بحيث يولد أساليب جديدة.

بعد هذا الاستعراض السريع لبعض المقومات الفنية التي تخلق عالم الرواية عند غسان كنفاني، يتجلى لنا أنه لم يتعامل مع الشكل تعاملاً جامداً؛ لذلك لم نستطع أن نجد قوالب جاهزة يمكن أن نصب الروايات فيها، ولا اشكال قارة نقيسها عليها. ورغم ذلك، فاننا لا نشعر بغرابة بين هذه المقومات ولا بقطيعة بين تقنيات الروايات المختلفة، فلقد بين لنا التحليل أن الاختلاف الظاهر يتمثل في تعبيرات مختلفة عن نفس الاختيارات الفنية، وأن الأساليب التي استعملها تتباعد ولكنها لا تتناقض وكثيراً ما يكمن الاختلاف في تكثيف بعض التقنيات أو تمطيطها أو مزجها بتقنيات أخرى، وما تجديده في رواية «العاشق» الذي ذكرناه، إلاّ مزج لطريقتي سرد معروفتين في الأسلوب الروائي؛ اذ يمكن لأي كاتب أن يسرد الأحداث في صيغة الغائب أو في صيغة المتكلم، ولكن غسان يستعمل الصيغتين في الوقت نفسه، فأطرافه هنا قائمة على مزج تقنيتين كلاسيكيتين، وما قلناه هنا يمكن أن نقوله فيما يخص الأزمنة والأمكنة وغيرها من مقومات الرواية. ان تحرره في استعمال التقنيات الروائية هو الذي أضفى على آثاره طرافة خاصة.

على أن الدارس لروايات غسان كنفاني لا يمكن أن يهمل ميزة أساسية في أسلوبه، وهي ميزة يصعب تحديدها لأنها ترتبط بلمساته الشخصية وطريقته في الكتابة وبتفاعله